Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرن الثامن عشر على يد روسو ، ربما مع إضافات كثيرة يزود بها حنامينه شخصيته البطولية ، ومنحها المبرر المقنع لهذا التطور الطبيعى ، الذى حدا ببطله إلى التطلع للانعتاق من وحدته وغربته وخطيئته الأرضية ، بعد أن قتل زخريادس صاحب الحانة اليونانى المستغل بدون قصد وهو مخمور .

فالبحر هو الملجأ الأخير . وهو يغمر نفسه فى مياهه بعد فراره إلى الغابة عند سماعه لأول إنذار من مطارديه أو نباح كلب . وفى الغابة تفتحت طاقاته الإنسانية فعاش على حافتها . يصطاد الأسماك ويأكلها وتسبح روحه فى زرقة البحر الصافية . ففيها خلاصه الروحى « الأزرق سطح منبسط ، يمتد ، يغمق ، وعند الأفق يوشحه بياض قطنى ، تنفست ملء رئتى ، عيناى أتاحتا للمدى المترامى بعد ذلك الاصطدام بجدران الغابة . خيل إلى أننى أخرج من بئر جدرانه من طحالب خضراء . وددت لو أتدحرج كحجر حتى أبلع الماء وأغوص فيه .. » . وبأسماك البحر وثق زكريا علاقته بالراعية التركمانية « شكيبة » . وعاش معها أجمل قصة حب ، بين البحر والغابة والطبيعة البكر .

غير أن حوتًا جديدًا يظهر فى البحر . يفر منه الصيادون ، الضعفاء بلا رجولة ، كما يصفهم زكريا المرسنلى فقد رأى فى لحيونهم الضعف والخوف . أما هو البطل الفذ المقاوم المقاتل ، فقد صمم على مقاومة الحوت ومقاتلته ، متحديًا ضعف الرجال قائدًا إياهم للانتصار على الحوت المعتدى ، مؤكدًا أن العدوان يأتى ويذهب ولكن المدينة باقية ، والعدوان يوقف بتكاتف الرجال ومقاومتهم : « أنا أعرف مدينتى . أعرف بحارتها وصياديها ورجالها . أعرف أن البحر قذفها بحيتانه ، وغزاها بأمواجه ، وفاض عليها بمياهه ، وطغى وبغى ، وأغرق كثيرًا من مراكبها وأهلها ، وزعزع كثيرًا من بيوتها ، واقتلع أشجارها ، وهاجت عواصفه ، وأمطرت طوال ليال وأيام سماؤها ، لكن مدينتى ظلت هناك . ثم تراجع البحر . ارتدت حيتانه ، وولت عواصفه وأشرقت الشمس ونبتت الأشجار . عجز البحر عن ابتلاع المدينة . الحيتان تبتلع الأسماك لا الصخور ، ومعدة البحر الكبيرة تزدرد السفن لا القلاع . كانت بيوتنا قلاعًا . وكنا نحن حراس هذه القلاع . كنا رجالا ، فماذا حدث الآن ؟ مات الرجال ؟ كل الرجال ؟ محال ؟ .. صرخت : محال ما مات الرجال .. لا يمكن أن يموت الرجال »[١٢] .

---

(١٢) حنا مينه ، الياطر ، ص ٢٩٢ .